

العلوم الاجتماعية شهوة القرن العشرين

د. علي زكي

جامعة الجزائر 2

ملخص:

لا يستقيم وضع العلوم الاجتماعية المتأزم منهجيا ومعرفيا إلا بعودتها إلى حضانة الفلسفة.

إن اقتباسنا لموضوعنا عنوان كتاب الأستاذ أندرسكي Anderski له ما يبرره في توضيح وضعية العلوم الاجتماعية المعاصرة من حيث هي "علوم" لم تستكمل بعد شرعيتها المنهجية - "الإبيستيمية"، إنها "علوم" من حيث التسمية البراقة ومن حيث السعي اللامجدي إلى إظهار وإخراج نتائج دراساتها في لباس الإحصاء الرياضي. ولكنها في جميع الأحوال تبقى علوما أقرب إلى الفلسفة الميتافيزيقا والآداب من العلوم الدقيقة.

ونقصد بشهوة العلوم الاجتماعية، والفكرة ستتضح تباعا، أنها تتصنع تطبيق منهجية البحث العلمي الصارم الآتية ثماره الطيبة في العلوم الطبيعية وتريد "زرها" في ميدان الإنسان والمجتمع إلى درجة التعنيف والقهر، وهو أصلا موضوع يتمرد بل ويتعفف للتجريب فيه، ثم تتطلع بعد ذلك إلى تقديم الوعود المعسولة حول إمكانية فهم المجتمع وإصلاحه والقضاء على جميع المشكلات التي تعرقل مسيرة وتعتل نظمته المنتظر نحو تكوين المجتمع الفاضل الخالي من الشرور، والأفات. إنها شهوة بانسة جعلت هيجو Hugo يقول بأن القرن التاسع عشر عصر قوى (بعلمومه وتقنياته) على أن سيكون القرن العشرين قرنا سعيدا فهل تحقق ذلك؟ هذا من جهة،

ومن جهة أخرى فإن المشكلة الكبرى بل المشكلة الأم القائمة اليوم في وجه العلوم الإنسانية تتمثل في تشتت ونشرهم وضياح الإنسانية في وقت كان بالإمكان فيه أن تكون الإنسانية المعاصرة أسعد إنسانية عبر التاريخ الإنساني كله؛ فإذا بالعكس هو الحاصل القائم؛ ويرجع السبب في ذلك حسب رأينا المتواضع إلى نمط الخطاب النظري الذي صاغته وروجته العلوم الاجتماعية حول الإنسان والمجتمع.

وهو خطاب قسمته العلوم الاجتماعية تقسيما متسرعا بالنظر إليه كموضوع لا يمكن عقلنته وفهمه بقدر ما هو موضوع يتعين تنويبه وتمييعه في ثنايا وسلاسل الدوال الرياضية الإحصائية المتشعبة.

إن العلوم الاجتماعية التي شأت المجتمع "وبنيت" الإنسان (من البنية Structure) خلصت إلى نتائج باهرة ولكنها أشبه بالتبن الوافر والحب القليل على حد تعبير فيبير weber هذا من حيث حاصل استيراد منهجية العلوم الدقيقة "وإلزام" الظواهر الاجتماعية على الإذعان للتكميم العلمي الصارم ولا ننسى من جهة أخرى أن هذه الوضعية من الشعوذة سترجع إلى نبذ العلوم الاجتماعية لتساؤلات الفلسفة المحيرة والتأملات الميتافيزيقيا الجريئة، وكذا ما يسود من نفور وعداء وتصارع متصنع بين فروع العلوم الاجتماعية في علاقاتها القائمة بينها، وهي علاقات يفترض أن تكون علاقات تكامل وتعاضد فإذا بها قد تحولت إلى علاقة تنابذ وتنافع.

ندعو في هذه الدراسة إلى إقامة علاقة حوار بين هذه العلوم والفلسفة من جهة مع العمل على تجسير هذه العلاقة مع العلوم الدقيقة، اعتقادا منا أن كل حوار جاد وبناء سيساهم في تقريب وجهات نظر بين هذه الأطراف المتحاوره ونقيم جواً من التعاون المتكامل "المتضافر".

يقول مارسيل موس Mauss في هذا الشأن بالحقيقة إنما تنبجس من شرارة الأفكار المحتكة. ويقول سان سيمون من جهة أخرى وفي نفس السياق، بأن وظيفة المتفك المتفلسف تقتصر أساسا على زرع الأفكار في مهب الريح التاريخي؟

فعلنا نقّدي بسان سيمون، ونتحول بالمناسبة إلى مزارعين للأفكار، نحسن انتقاءها، نجيد صياغتها، ونحكم طرحها ونصدق فلاحتها بالتحليل والمناقشة، وفي الأخير نقوى على أشباعها التأكيد بغنون البرهان المنطقي، وبقرع الحجج البالغة والبليلة. فإذا ما صمدت الفكرة المزروعة أمام قوة البرهان كان ذلك دليل خصوبتها، وإلا تركناها إلى غيرها من الأفكار.

ولكن ما هي الأفكار التي يمكن زرعها في هذا العصر؟ وأية أرض ثقافية لم تنصح بعد بفعل التقانة حتى نزرعها وننقشها بالتحليل ونقطفها بالاستدلال؟

ثم ما هي الأفكار الفلسفية القادرة على اختراق كتلة المعرفة العلمية، المتراسة البناء والمحكمة الاستدلال والاستنتاج؟ ألم نسمع منذ وقت أن العلم المتكأ على عصا الرياضيات، يهزّ بها على رأس كل ظاهرة من ظواهر الكون الشاسع، لم يترك منها ولا ظاهرة ومهما كانت ضئيلة بدون أن يدرجها في شبكات قوانينه الرياضية الصارمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن توسيع نطاق استعمال الرياضيات في تكميم الظواهر قد توسع ليشمل ويقبض حتى على الميدان التاريخي الاجتماعي ذاته، وهكذا فإذا كان العلم قد نجح في اكتشاف كل ما يمكن أن يكشف، وهو رأي ما طفق يسود أوساطا علمية واسعة جدا فماذا يمكن أن ينتظر من الفلسفة المسكينة؟

ألا يستحسن تسريحها وإعفاؤها من وظيفتها النقدية اللامجدية بحكم هذا المنطق؟ ألا يكفي الناس ما يعانونه يوميا من الشرور القاتلة والمهموم المقلّة، حتى نزيدهم حيرة معاناة التفكير والنقد اللامحتملين؟

الحقيقة أن التمادي في طرح هذه الأسئلة، المشروعة في رأينا، قد يبعدنا عن صلب الموضوع، وأن لم يخل ذلك من التمهيد المنهجي له.

نعتقد بأن موضوع مستقبل الفلسفة خلال الألفية القادمة يمكن أن يعالج على أكثر من مستوى، ونكتفي بالإشارة إلى طبيعة ومستوى الممارسة المكثفة للعلم في

البحث الجامعي والميداني للمجتمعات الغربية، وما آلت إليه النتائج الحاصلة، من التمكن من (مكنة)، والتمقن من (تقانة) والتآلي من (آلة) مع ملاحظة آثار وعواقب نتائج الاستعمال المفرط للعلم بعد تأملجه وتسييسه (1)، فالتحديات والمخاطر القائمة في وجه الإنسانية، سواء منها الفعالة في العلم والتقانة (المجتمعات الغربية) أو المنفلة بهما (العالم الثالث) ماثلة للعيان، وأظهر هذه المخاطر، التوازنات المختلفة بين التقدم المطرد والمتبادل بين العلم والتقانة، وانعكاساته السلبية على الحياة الأخلاقية الثقافية للإنسان والمجتمع عموماً.

وواضح أن معالجة مثل هذا الاختلال لا يأتي إلا بإعادة النظر في طريقة تعامل العلم ذاته مع السؤال الميتافيزيقي المركزي، ما الإنسان؟

إن الجواب على هذا السؤال قد يؤدي إما إلى مزيد من التشيء الفضيع للإنسان وتمييع حياته الروحية، بتصريفه عنها وإغراقه في وحل الماديات، وإما أن يؤدي إلى تكريس إنسانية الإنسان وذلك بتأكيد ضرورة الجمع المتزن والمنسجم بين مقتضيات الحياة المادية الملحة وبين مطالب الحياة الروحية الضرورية والأساسية في نفس الوقت.

ويبقى أن مفتاح الحل يكون بوضع منظومة معرفية علمية جديدة تتجاسر فيها معارف الإنسان الطبيعية وتتناسب مع مداركه ومعتقداته الاجتماعية التاريخية والروحية.

وبطبيعة الحال فإنه من المناسب أن تشكل الفلسفة مركز الثقل لهذه المنظومة المعرفية من حيث أن الفلسفة بمثابة مبدأ العلوم وخبرها. ألم تبدأ كل العلوم عملها من حيرة وتسؤلات الفلسفة؟ ألا ترجع إليها في كل مناسبة "تباركها" على مسعاها المنهجي، وتنتهي عليها ففي نتائجها الحاصلة؟ فعسى ألا تغفل أو تتغافل الألفية القادمة عن مثل هذه الممارسة الخصيبية والممتعة حقاً.

وتجدر الإشارة من جهة أخرى إلى أن الممارسة الفلسفية لهذا العصر مدعوة إلى مراجعة "المنهجية العلمية" التي صاغ بها الغرب مفهومي العقلانية والحدائث، وكيف سخرهما للسيطرة على العالم وقيادته باسم الحقيقة العلمية التي اكتشفها وحده، غاضا الطرف عن إسهامات المجتمعات الأخرى في ذلك. أي لابد من تكريس المبدأ القائل بأن إنسانية وشمولية الممارسة الفلسفية لا تتعارض وخصوصية الثقافات المحلية مهما بدت "بدائية".

وبتكريس هذا المبدأ تتحطم الأسس المتعسفة التي اتبنت عليها الاختكارات العلمية والسياسية للغرب وتستبدل بنظام دولي فلسفي جديد يؤكد صراحة بأن الفلسفة ممارسة إنسانية لا تقوم على العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو التاريخ.

الفلسفة بين الألفية الثانية المتناهية، والألفية الثالثة المتنامية:

إذا كانت الفلسفة باتت تشكل جبر التاريخ ووعي العصر وروحه المتوقدة كما يقول هيجل HEGEL فهل لهذا العصر فلسفته الخاصة به تلخص وعيه وتتم عن روحه؟ وما طبيعة وقيمة وأبعاد هذه الفلسفة؟

إن الجواب عن هذا السؤال قد نجده عند الأستاذ ج. دوفينيو J. Duvignaud في كتابه الهام "ولوج القرن العشرين" إذ ذكر أن سحرة بلاد هايتي يختطفون من حين لآخر شخصا ما، ثم يعزلونه ويخدرونه، وفي الأخير ينعون له خبر وفاته، بأن يجعلوه يشرف شخصيا على جنازته، وبطبيعة الحال يتحول الميت المغبون إلى ظل تائه على ضفاف جهنم الحياة، ويصبح عبدا مطواعا ومطيعا لسحرته وجلائيه، ويدعي هؤلاء بالأحياء - الموتى ZOMBIS، ويفهم من هذه القصة الطريفة أن حال المعاصرين لا يختلف كثيرا عن وضع إنسان هايتي. وإن أناس هذا العصر المبنجين بأثر أفعال كثيرة ومختلفة هم في الواقع "أحياء موتى" وأن تكيفهم السلبي مع الأشغال الآلية جعلهم يأتون بتصرفات لا علاقة لها بالإرادة والتفكير، وهذه الوضعية المضحكة لا تخص البسطاء من الناس فقط، بل تتعداهم

لشمل تصرفات المتقنين إزاء وداخل مجتمعاتهم، ألا نلاحظهم يندفعون بحماسة كبيرة يلجون و"يفتحون" الأراضي الجديدة "الحداثا" و"ما بعد الحداثا" على حد تعبير ليوطار J.F. Lyotard؟ ألا يصرون على الركض وراء إنجاز مشاريع "تورية" قد تبين غيها وتؤكد إفلاسها منذ زمن طويل؟ وإنهم في كل ذلك شبه نيام مستغرقين في الأحلام اللذيذة للقرنين الماضي والجاري.

إن متقني هذا العصر المفتونين بسحر أحلام وعود القرن الماضي باتوا كما يقول نيتشه F. Nietzsche يجتزون المحصول الثقافي العلمي للقرن الماضي بكل سلبية وقصور، لا يقوون على مضغه وتمثله ولا على تجلوزه.

فتبعية متقني القرن العشرين الباهت لمتقني القرن التاسع عشر الزاهي تظهر في جميع الميادين، وحيث أن متقني أي عصر لا يحطمون من المفاهيم كما يقول كونت A. Comte إلى ما يقوون على تعويضها، فإن مفكري هذا القرن لم يتوصلوا بعد إلى صياغة أي مفهوم جديد حقا، يقولون به خلاصة تجاربهم ومعاناتهم. كما إنهم لم ينسجوا أية يوطوبيا جديدة تشد همهم وتسوِّط خيالهم ويتطلعون إلى إنجازها. إنهم بهذا لم يفتتحوا أية مشكلة جديدة ولا اجترحوا منهجية رائدة ولا بنو علما من أيس على لغة الكندي. وباتوا يقفون على عتبة القرن القادم معصبي العيون ومبني الوعي.

فما أشبه إنسان هذا القرن المستغفل بفعل السياسة الماكرة بإنسان سنة 1000 المنهمك في "تحرير" صكوك الغفران أو بإنسان بيزنطة المستغرق في مناقشة جنس الملائكة ورياح التاريخ تعصف بهم تحت وقع جحافل التتار، يدفعهم إلى حيث لا يدرون.

وهكذا فإن مشاهير متقني العصر الغربي، انتهوا من تشخيصهم لحال أوروبا إلى القول بأن هذا العصر مريض حقا، وأن الفلسفة من حيث أنهم أطباء الحضارة على حد تعبير نيتشه هم وحدهم القادرون على اكتئاب الدواء الناجع، وفي انتظار

أ - التنبؤات:

نعتقد أن أهم وأخطر مشكلة أفرزها الفكر في القرن التاسع عشر وكرسها قرننا هذا بلا عناء كثير، ما يمكن تسميته "بفكر النهايات" وهي مشكلة محيرة وشائكة حقا يتعين مواجهتها بالتواضع السقراطي وبتهكمه اللاذع والمليء بالعبر والدروس. وخلاصة المشكلة أن الممارسة العلمية للقائمة أساس على التنبؤ (إذ علم بدون التنبؤ كما يقول أرسطو Aristot) ستجعل من معرفة مكونات أية مادة من مواد الكون في تراكيبها وآلياتها ونوابضها أمرا ممكنا، وأن ساعة هذه المعرفة آتية لا محالة. كما أن إدراج حاصل مثل تلك المعرفة في شبكة من الدوال الرياضية وتنصب في نظرية واحدة ووحيدة أمر سهل كما يقول دعادة هذه الفكرة.

وبدیهي أن هذه النظرية إذا ما تحققت، والعلماء لا يساورهم الشك في ذلك ستجعل الممارسة الفلسفية عديمة الجدوى.

ألم يقل كونورسي Condorcet بأن العلم لن يترك شيئا للفلسفة تفكر فيه أو نقترحه وتعرضه على البحث والمناقشة؟

وتطبيقا لهذه التنبؤات الفضفاضة الموهمة بالجدية العلمية، سارعت الدراسات المرتبطة بالديناميا الحرارية إلى تأكيد ذلك. وأعلنت في ثقة واطمئنان واستنادا إلى فكرتين لا تراجعية أو انعكاسية الزمان، ونفاذ الطاقة المستهلكة بسبب القصور الحراري الذاتي للمادة، أن الانتثار الحراري للعالم المنغلق على نفسه أمر محتوم لا مفر منه. وإذا انطفأت جميع إمكانات التحول والتجديد من الكون والفساد (أرسطو) بسبب استنزاف الطاقة المستهلكة وتعذر تعويضها، استحالة الحياة وانتهت وبلا عودة.

ولقد حاول بعض العلماء التهوين والتقليل من فعل هذه التأكيدات المخيفة، فقالوا بأن هذا التلاشي المستمر لا يمس إلا الأرض وحدها ما دام العلم لم يعرف امتدادات وأبعاد الكون المختلفة والمترامية الأطراف إلى ما لا نهاية، وعليه فإن هذا

الانتثار لن يشمل الكون ككل بل يمس الأرض وحدها، وفي هذا السياق يرى الأستاذ جليزستان أن برودة الأرض ستزداد يوما بعد يوم إلى حين انقضاء سبل وشرائط الحياة فيها. وفيما يتعلق بالإنسان المصمم على البقاء ومتشبه بالأرض الشحيحة عليه بكل شيء فإن أجله آت لا ريب فيه اللهم إلا إذا هاجر إلى كوكب آخر أرحم والطف وأبقى من الأرض المنتهية (هل يندرج غزو الفضاء وإعمارها بالإنسان في هذا المنظور)؟.

وما يزيد الموقف هولاً أن النعي بنهاية العالم المحتومة لم يصدر عن العلوم الطبيعية وحدها بل انعكست ارتداداتها العنيفة على بقية العلوم خاصة منها علوم البيئة والعلوم الإنسانية كالأنثروبولوجيا مثلاً.

فعلوم البيئة تعيش فعلاً هاجس مستقبل الطبيعة المهدد بأطراد مع تزايد التكنولوجيا والصناعة (التلوث، التصحر، طبقة الأوزون، الطاقات التي لا تجد...) وانتقل أثر هذا الوسواس إلى الإنسان ذاته من حيث أن تاريخه معقود على مصير الطبيعة.

ويقول الأستاذ كلود ليفي سترواس C.I. Sttrauss بأن العالم سينتهي كما بدأ وفي غياب الإنسان، وأن المؤسسات الاجتماعية المشكلة للعادات والتقاليد والأعراف، والتي نقضي حياتنا لملاحظتها ودراستها وفهمها لا تكتسي في حد ذاتها أية دلالة خاصة أو متميزة، لأنها لا تمثل إلا هذا الوسط المزهر للحياة الاجتماعية وما يوفره للإنسانية من فرص القيام بالأدوار المسندة إليها ليس إلا.

فدور الإنسان فيها من حيث هو مجرد آلة، ضئيل جدا حتى وإن بدأ أعقد وأكمل من جميع الآلات، إن دوره لا يتمثل في مواجهة أو رد عملية التدهور الاجتماعي التي لا راد لها فوراً لابتدائها (ابن خلدون)، بل يقتصر على دراسة عملية وآلية التدهور الكلي للكون؟ (هل هي عدوى وضعية وموضوعية العلوم الطبيعية؟) وهكذا فإن علوم الكون والبيئة والإنسان تعتبر مشكلة النهاية المحتومة المرتقبة

كتحدي محير للفكر، يتعين مواجهته ورفعته ولكن هذه النهاية ولحسن الحظ كما تقول هذه الدراسات تتعلق بالأفراد المعينين فقط ولا تخص الإنسانية كافة والكون ككل. ومعنى هذا بتعبير آخر أن آجال هذه النهاية المخيفة تبدو بعيدة جداً، ويظل دور الإنسان في التعجيل بها أو تأخيرها طفيفاً للغاية كما تبقى المخاوف قائمة رغم هذه التضمينات.

ومن النتائج المباشرة لهذا الانسداد الفكري أن الناس باتت تعيش في زمان قل فيه التعجب أو انعدام تماماً، طالما أن كل شيء فيه أصبح معروفاً ومألوفاً يستحيل عليهم كما يقول الأستاذ ب. بيكر B. Becker ومهما حاولوا، أن يتصوروا الحياة مثلاً كدراما الهية حسنة التأليف ومحبوبة الإخراج، أولها معروف مفروغ منه، ومغزاها قد بانت واستبانته وانتهى الأمر.

كذلك قد يكون السبب في جفاف فكر هذا العصر، أن العالم بات من وضع المشتغلين بالرياضيات ووحدهم، باعتبارهم أسهل وأدق الطرق لفهم العالم ففي كل ظواهره ومظاهره. وعلى هذا الأساس فإن الفيزيقي في تعامله مع الطبيعة كلما اشتد التضيق عليه وقوبل باعتبارات فلسفية وميتافيزيقية محرجة له تخلص منها باللجوء إلى الرياضيات ليحسب ويقدر كل شيء ويتنبأ به على المدى القريب والبعيد. وبحكم هذه المقدرة الفائقة على حساب ومعرفة كل شيء فإن هذا العالم كان من المفروض ألا يعرف اليأس إليه سبيلاً ما دام كل شيء فيه ممكناً حسابه وتسخيرته ووضعته في قبضة يد الإنسان، لكن العكس تماماً هو الذي وقع. والسبب هو أن الإنسان الذي "عقلان" الأسطورة القديمة، والكتب المقدسة السماوية والطبيعة بالفلسفة بعد أن أبعد وأنزل "زوس" Zeus عن السماء لم يعد يكفيه الوقت ينفقه في البحث عن المبدأ الأول المطلق القديم، كما كان السلف، يثبت به أقدامه كيما يأخذ في السير من جديد.

إن ذلك المبدأ الأول "المخلوع" لم يعد صالحاً لكي يتخذ منه الفكر مقمة لاستدلال ما. وعوض الركض وراود هذا المبدأ الأول لتستقر عليه الأقدام بات

الإنسان الحديث يتعامل مع خليط من العناصر المحيطة به، وهو ذلك الخليط المتمرد عناصره عن كل ترويض أو استدراج حتى تقبل الانضواء في إحدى المقولات الفكرية التي تقوم على افتراض نسق منطقي للعالم، فعوض كل ذلك إذن اكتفى الإنسان بملاحظتها وحسابها واستخدامها في الاختبارات، يحققها ينسقها، يقيسها إن أمكن، يستخدمها في الاستدلالات المنطقية أقل ما يمكن. وجملة القول فإن الغاية الكبرى لإنسان هذا العصر هي أن يقيس العالم ويسيطر عليه ويسخره ثم يستثمره، لا أن يفهمه ويتأمله ويتعشق جماله ويتكبر نظامه الهندسي البديع.

ومن مخاضات هذه التنبؤات المستتدة إلى التعميمات المستخلصة بكثير من الاستخفاف والعجالة، انتقال عداها إلى الميدان الاجتماعي - التاريخي: كهذه النغمة الماركسية المتزينة برداء العلم والتي سارعت إلى القول على لسان فرانز ماريك أن باستطاعة المرء أن يرقص حتى العلاقات الاجتماعية المتحجرة إذا ما عزف لها لحنها الدياليكتيكي المحبوب لديها.

وسلك هذا المنحنى المتقائل لحد الإقراط في الميدان التاريخي نفر من المؤرخين المنضوين تحت لواء المذهب التاريخاني، يقولون بإمكان التحكم في السيرورة والسيرورة التاريخية بمجرد اكتشاف قوانينه وهو ما أثار حافظة الأستاذ كارل بوبر K. Popper حين وضع كتابه المشهور "عقم الذنب التاريخي" يرد فيه على تهافت التاريخانيين بلا استثناء، وهذا الانتقاد حله وعمقه أكثر في آخر ما نشر له تحت عنوان "دروس العصر".

وهكذا فإن فكرة النهاية لم تعكر نقاء فكر العلوم الطبيعية وحدها بل عدى تسنمها الفكر الاجتماعي التاريخي نفسه، ويتعين على الفلسفة توضيح مزالق ومسائلي مثل هذا التفكير بالتحليل الرزين والمناقشة الهادئة، خاصة وأن هذه النهاية تحولت إلى القول بنهاية التاريخ نفسه بل ونهاية الفلسفة عينها؛ وسنرجع إلى هذه الفكرة الأخيرة لعلاقتها بالموضوع.

فلا غزو في كل هذا إذن، فالعصر الذي يعلن موت الله ثم يثنيه بموت الإنسان، لا تكتمل حلقات منطقته ولا تستقيم إلا بتأكيد نهاية كل شيء، هذا عن التنبؤات:

أما عن التنبؤات فإنها ستختلف بحسب الغزاليين لمانتها والنساجين لخيوطها، ولكنهم يتفقون في نقطة واحدة على الأقل هي عزوفهم عن العالم المعاش لما فيه من عوامل التفكك والتهور والتدهور، وتعويضه بعالم مستقرة أركانه، منزنة عناصره ومنسجمة أفكاره، عالم خال من التوتر والتفكك والاضطراب، عالم العدالة والحرية والمساواة، إنه عالم الفلاسفة، وعالم الأنبياء والرسل وعالم العلماء. إن هذا النوع من الفكر الجياش ما فتئ يسوط عقل الإنسان ويستفز فكره ولا يزال منذ قوانين حمورابي الرائدة ومدن الأنبياء والرسل، وجمهورية أفلاطون الحاملة، فالمدينة الفاضلة للفارابي مرورا بجمهورية الغابات لكانط والعقد الاجتماعي لروسو، وكتابات طوماس مور والماركسية والمدينة الفاضلة لفلاسفة القرن 18 وصولا إلى الوعود "المضمونة" لعلماء القرن 19 بإقامة مجتمع على أسس علمية يتولى فيه العلم حل كل المشكلات مهما بدت معقدة.

ألم يتمحور برنامج العلماء المؤمنين بالعلم إيماننا "دينيا" حول فكرة الاعتقاد بأن خلاص الإنسان والمجتمع بات مضمونا بفضل العلم وتقنياته التي ستبني له عالما مستقرا مطمئنا وسعيدا يتوفر فيه على ما لا أذن سمعت ولا أعين رأيت؟ ولكن هيهات.

موقف الفلسفة من التنبؤات والتنبؤات:

1 - موقفها من التنبؤات العلمية:

قبل الشروع في تحديد هذا الموقف يستحسن تحديد معنى كلمة الفلسفة ابتغاء الوضوح والتوضيح خاصة وأن لكل ناظر في الفلسفة رأيه وموقفه الخاص منها، ألم يقل بعضهم بأنه توجد من الفلسفات بقدر ما يوجد من الفلاسفة؟

نقول أولا بأن الفلسفة علما ولا رغبنا يوما ما في ذلك وإن لم يخل تاريخها الحافل من محاولات جعلها علما دقيقا وصارما، وهي لهذا السبب لا تقدم معارف يقينية جاهزة للاستعمال اليومي، ونعتقد مع الأستاذ دولوز G. Deleuze بأن أهم دور يمكن أن تقوم به الفلسفة، ولا ينازعها أو يناهسها في ذلك أحد، هو وضع وصياغة المفاهيم تكون من الدقة والوضوح والبساطة أن تعكس بكل أمانة بساطة التجربة التي استمدتها منها.

أي أن الفيلسوف الحقيقي هو من يؤمن بقوة العقل على تحويل وصياغة التجربة التاريخية في صورة مفهوم يوظفه في دراسة الثقافة التاريخية بمختلف مظاهرها ومستوياتها، ويرجع بها إلى المبدأ الذي صدرت عنه، ألم يقل هيدجبر Heidegger في هذا الشأن بأن الفلسفة الحقيقية لا تبدأ إلا من المشكلات الراهنة القائمة بكل حدة ثم تعمل على الرجوع بها إلى منابعها الأولى؟ ويفهم من هذا أن الفلسفة لا تفكر إلا في المشكلات التاريخية وبهذه المشكلات معا.

فهل فعل أفلاطون أو الفارابي، ابن رشد، ابن خلدون، كانط، هيجل وماركس وغيرهم كثيرون شيئا سوى الإجابة عن الأسئلة المطروحة في مجتمعاتهم؟

ويؤكد الأستاذ ليو ستروس L. Strauss هذه النزعة التاريخية للفلسفة حين يبين بأن هذا الاتجاه يعني أن العقل لا يستطيع مهما فعل أن يتجاوز نطاق التاريخ ولا أن يفكر مشكلتي الخير والشر مثلا إذا لم يتناولهما من وحل الممارسة التاريخية.

إن الفلسفة إذن لا تعلمنا شيئا محددا في ذاتها ولذاته ولكنها تعلمنا كيف نتفلسف كما يقول كانط E. Kant وهو شيء مهم جدا بطبيعة الحال. وهكذا فإن الفلسفة من حيث هي موسيقى مقدسة للعقول المفكرة كما يقول رينان Renan تساهم إلى جانب ترويضها وصقلها للعقل في تنظيم المعرفة الإنسانية وتركيب شتاتها المتناثر هنا وهناك تتأثر الميادين المستقلة عنها والمتصلة بها رغم / مع ذلك.

وهذه الوضعية المميزة للفلسفة تؤهلها لكي تقوم برعاية وترقية ونقد وتوجيه العلوم الوجهة العلمية / العملية المناسبة، ولكن يبدو وأن استقالة أو إقامة الفلسفة عن هذا العمل البناء أوقع العلوم الطبيعية بالخصوص في تناقضات، ومآخذ لا تغتفر لا منطقيا، وأخلاقيا، ولا تاريخيا أو حضاريا، ففمن التناقضات المنطقية التي وقعت فيها العلوم الطبيعية مصادرتها لقضايا أقرب إلى الميتافيزيقا منها إلى العلم وهذا ما وضحه الأستاذ ستانلي بيت B. Stanley في كتابه "بساطة العلم" حيث وضع بأن العلم يقول أن الكون لا غاية له، وأنه آلة ضخمة صماء، نشأت عرضا وتظل تدور بلا غاية أو هدف لها، والإنسان من جهته لا يشكل إلا ذرة عابرة تافهة في الغبار الكوني، وأن الناس جميعا في ذلك سواء؟ وأن كل ما يمكن أن يفعله الناس هو أن يصمدوا لمصيرهم المقضى في شجاعة وصبر وأن يسلكوا كما لو كان للأمر أهمية حقيقية، فمثل هذا التصوير الأدبي لكون عابث ويائس هو ما يرفعه أصحابه إلى مرتبة الوصف العلمي الدقيق، مع أنه في جذبه وسطحيته يشوه المعرفة الإنسانية ولا يغنيها، فهذه المعرفة ليست إذن علمية بأية حال، لأن إنكار وجود غاية للكون وإنكار إمكان أن تكون هذه الغاية حقيقة كونية يعني أن لدينا وسيلة لقياس هذه الغاية، فهل من عالم اهتدى إليها بعد وطبقها؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟

فسلمت العلم ومناهجه لا تكفي إذن لإجراء دراسات موضوعية لأمر ميتافيزيقية مثل الحرية والغاية، وأن المفاهيم العلمية المضبوطة لا تسع الاعتبار المتعلقة بالغاية.

ويبقى العلم، على أية حال يمثل وجهها واحدا من أوجه المعرفة البشرية ليس إلا. أي ليس العلم هو الوجه الواحد والوحيد من المعرفة البشرية، ولا يشكل بمفرده الفهم البشري للكون.

فما أشبه إنكار الغاية على أساس عدم إمكان الاهتداء إليها بالنظريات، بإنكار وجود الموسيقى لأنك لا تستطيع أن تعزف النشيد الوطني على الحاسوب.

وإلى جانب هذا التناقض الفلاح نشير إلى الانتقادات اللاذعة التي وجهها الأستاذ جاك مونود J. Monod للعلم ولخصها في درسه الافتتاحي المشهور في كوليج دي فرانس Collège de France يوم 29 ديسمبر 1967 حيث ذكر بأن العلم وسليته التقنية باتا بحكم تعدهما المفرط والمتراكم عبر قرون تتجاوز قدرات الفهم والتحكم لا كفاً وأقهر العلماء، وأن ذلك الإحساس تحول إلى شعور الإنسان بالإهانة واليهون أكثر منه شعور بالقوة والعظمة.

كما أن لنتائج الاستعمال المتصنف لمبتكرات العلم في الميدان التجريبي العلمي والسياسي من السلبيات ما جعل بعض العلماء يسألون أنفسهم حول فضاة وجنون الأعمال التي قمتها أيديهم المثلثة والأثمة بحكم ما وقع سياسيا بالخصوص، وتذكر بعض الدراسات أن نفرا من العلماء لم يتردوا في القول بأن "الملاك" جاليلي الذي أخرج الطبيعة من ظلام الليل إلى نور العلم تحول إلى إيليس انشتاين الذي أغرق الطبيعة في ظلام الذرة، كما أشار مونود Monod إلى المخوف التي انتابت كانت Kant حول الاستعمالات السلبية للعلم وهذا في عصر هادئ نسبيا مقارنة بعصرنا هذا، إذ لاحظ ببصيرته النيرة بأن الصور الآلية التي ينسجها العلم حول النظام الميكانيكي للعالم بلغت مستوى من الدقة والصرامة والآلية والتراس أن لم يبق فيه أي مكان يشغله الإنسان، ببل ولا حتى من وظيفة يقوم بها ما خلا وظيفة ملاحظة وتقدير جريان الظواهر الطبيعية جريانا مطردا لا انكسار في سلسله المتداخلة بأحكام وبلا خروج ممكنة لها.

إنه نظام بلغ درجة قصوى من الآلية الباردة، ليعيد تأكيد فكرة انغلاق العالم على ذاته واكتفائه الذاتي في كل شيء، بحيث أنه لا يحتمل أي تدخل خارجي عنه عن طريق المعجزات السماوية مثلا، أو الحرية الإنسانية الباردة بل وحتى طيش الصدفة تنتقي من هذا العالم الأصم.

والغريب هنا هو أن العلوم العاجزة عن تفسير وتحليل ظهور الحياة و"طفو" الإنسان على سطح الأرض لم تتحرج في الالتجاء إلى طيش الصنفة بعد أن تكثرت لها ولقصتها من نظام الكون المشمئز من كل بخت، والمتخوف من الفراغ مهما كان (أرسطو).

ونشير إلى مأخذ آخر حله مونود بلمسهاب لأهميته القصوى في نظره وفي نظرنا نحن الآن ويتعلق بشكل آخر من التناقض الخطير الذي وقعت فيه العلوم حينما دعت إلى إقامة المجتمع على أسس علمية (قيمة) مع إصرارها العنيد على رفض كل ما هو قيمي، كما قلنا منذ قليل على لسان استنل بيت.

ألم يكن العلم جهالاً بالقيم؟ ألا يقوم العلم من جهة أخرى على نوع من الزهد ينطوي بالضرورة على سلم من القيم كقيم المعرفة والحق والجمال؟ وهل يستطيع العلم مع كل ذلك أن يبرهن على صحة أو خطأ القيم وبكل موضوعية؟ ألا يؤدي بناء المجتمع على أسس علمية تضعها وتفرضها فئة قليلة "تيرة" من الناس على أغلبية الفئات الأخرى الجاهلة لتلك القيم إلى استلاب المجتمع؟ أليس ذلك منشأ الاستلاب عنه في المجتمع المعاصر كما يتساءل جاك مونود؟

ونتهي هذه النقطة المتعلقة بموقف الفلسفة من التنبؤات والممارسات العلمية ونشير إلى أن موقف الإنسان من العلم يقوم على نوع من الازدواجية. فالعلم القائم اليوم والطابع للمجتمع المعاصر بطابعه الوضعي والموضوعي ينطوي على جانب إيجابي وآخر سلبي. فالجانب الإيجابي يتمثل في تمكين الإنسان من وسائل السيطرة الفعالة على العالم المحيط به كما أنه يقدم ولو لفئة قليلة من الناس منافع ومعارف نظرية ذهنية عقلية كبيرة وممتعة، أنها مواقف تخاطب وتتعلق بل تبرز كل ما في الإنسان من قوى كامنة وتجد في العلم وتقنياته فرصة للتعبير والتحرر وما تحمله من مشاعر القوة والعظمة والذكاء، غنة الجانب العقلي المفروز "للعسل" على حد تعبير الأستاذ همبوجر J. Hamburger.

أما الجانب السلبي فإنه منفرد وبغض لأنه ينطوي، رغم رغبة الإنسان في إخفاء ذلك، على فكرة الحتمية، المتضمنة نظريا لإمكانية التنبؤ بأفعال الناس الحاضرة والمستقبلية، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تقليص قوة الإنسان التي أبرزها الجانب الإيجابي، وبطبيعة الحال فإن الناس يفضلون التعامل مع الجانب الإيجابي للعلم كونه ينفس عن قوى الإنسان ويصعدها، بينما يعزف عن جانبه السلبي القابض على قوى الإنسان وكتبها، كما يعزف عن استعمالاته السياسية - العسكرية السلبية، النابعة أصلا عن هوى الإنسان وعواطفه، طالما أن هذا "العسل" قد يتحول إلى السم القاتل كما يقول همبورجر.

وهكذا ظل الناس في حيرة من أمرهم لا يدرون كيف يختارون موقفا واحدا فقط من بين موقفي العلم المتضاربين والضروريين في الوقت ذاته:

فالعلم المصادر لفكرتي العلية والاستنباط يسلمح الإنسان بمختلف الوسائل الناجعة والنافعة لتسخير الطبيعة والمجتمع والسيطرة عليهما، وهو بهذا يؤكد حرية الإنسان الخلاقة والمبدعة، ولكنه في نفس الوقت يضيق عليها على مستوى الممارسة، لأن كل ما في الكون، بما في ذلك الإنسان يخضع للتنبؤات العلمية الصارمة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أسس العلم ومبادئه قد تعرضت لانتقادات منهجية سديدة كشفت بل وفضحت الطابع اللاعقلاني للعلم، وقد يكون في ذلك تحديد لقوة العلم وبسط لإرادة الإنسان "الحرّة" ويرى بـ Russell أن هذا المشكل محير فعلا، وأن المناقشات المنتقدة للعلم ما فتئت تزايد حدة يوما بعد يوم أن الحل ليس في متناول اليد بعد.

ويبقى الفضل في الحركية العلمية راجعا أساسا إلى الفلسفة التي تحي العلم وتنشطه بعد كل استرخاء أو تكاسل أو ميل إلى العمل اليومي الرتيب الممل، ونتمنى مع Russell أن يكون المستقبل كفيلا بليجاد حل مرضي لهذا المشكل المعقد، يستحضر مركبا جديدا من العلم والثقافة بعسل العقل وسم العواطف.

أما عن التنبؤات التي أحجبت مناظرها الخلابه والمغرية مختلف العلوم فيمكن القول بأن العالم الواثق ثقة مطلقة قدراته النظرية اللامحدودة على معرفة كل شيء قد وعد بتسخير مخترعاته التقنية لتخليص الإنسانية "كافة" من مشاكلها المعقدة والخطيرة، بل أن العلماء قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين أكدوا بأن الطلسم الذي سيحول الجهل معرفة بكل شيء وشيك الاستحضار، وأن العلم من حيث هو قوة كما قال بيكون F.Bacon من قبل، هو وحده الكفيل بحل مشكلات الناس مهما كانت.

وهكذا كان الوعد ولكن بقي الوفاء به معلقا، والعلوم ما انفكت تكشف الغطاء يوما بعد يوم عن أسرار الظواهر الكونية والاجتماعية، وهو ما دفع بالإنسانية في مغامرة مثيرة لا أحد يعرف مآلها ومنتهىها خاصة بعد أن اعتزم الإنسان تعمير الفضاء القوسي والمحيطات العميقة وبعد أن بسط يده على الأرض، المأهولة منها والمهجورة، كما صمم على بناء مجتمع عصري على أسس "علمية" ووفق قيم المحبة والأخوة والمودة، يسوده من الانسجام والتآلف والتواصل ما يحمي كل أسباب وعوامل الكراهية والعداء والنفور والعزلة. ولكن هل وفي العلم بكل ذلك؟ وهل بإمكانه ذلك؟

إن التقدم العلمي المتسارع والمتراكم بإطراد لوسائل الاتصال والنقل جعل العالم قرية صغيرة، انمحت فيها الحواجز والحدود سواء منها الطبيعة والاصطناعية أو السياسية والثقافية، بل أن لقوة وبلاغة الجملة المدعمة بأثر الصورة المنقولة عن طريق وسائل الاتصال الفضائية أضحت تمطر في كل مكان نفس النمط الموحد من السلوك اليومي ويتكرر بكيفية متطابقة ومتشابهة عبر مختلف أنحاء العالم المنكمش، ويلاحظ الأستاذ سيرج لاطوش S.Latouche في كتابه القيم "غربة العالم" (أي أن العالم أصبح غريبا) بأن السياحة لم تعد مجدية، وأنها فقدت دورها الحيوي في التربية الثقافية الجغرافية والتاريخية وحتى الجمالية التهديبية.

فتشابه المدن في عمرانها وهياكلها المختلفة وانطواء الناس ضمن قوالب سلوكية موحدة، مفروضة أو مستوردة جعل الناس تتشابه تشابهاً منفراً. يقول نيتشه في هذا الشأن بأن عولمة الديمقراطية والاقتصاد سيفرز نمطاً موحداً من الناس يتشابهون في كل شيء خاصة في الرداءة وفي القابلية للاسترقاق، وسيصنع الناس بأيديهم القهر والاستبداد الملائم لحالهم الوضعي، وحتى تكتمل هذه الصورة القائمة يلاحظ نيتشه بأن الإنسان المعاصر المستكين إلى الإيمان السطحي والقيم المتبدلة بات يلعن العلم والمعرفة ويتبرأ منهما. ولكن ما شأن الفلسفة من كل ما سبق؟ وهل هي المسؤولة عما حدث حتى تسأل؟ وهل بقي لديها شيء تفعله بعد أن أفرغها العلم من مضامينها الحيوية؟ وهل يعقل أن يسترشد بها سواء السبيل لاقتحام المستقبل في ثقة وطمأنينة؟ نعتقد أن وضعية الإنسان الحالية لزمت لزوماً تاريخياً ومنطقياً عن الطريقة التي تعاملت بها الإنسانية مع الماضي وعملت بمقتضى المحصول التاريخي على استشراف المستقبل وترقبه أو تجنبه بالرجوع إلى الماضي المريح. وحيث أن الحقب التاريخية في تلاحقها وتلاحقها لا تتمايز فيما بينها إلا بفلسفاتها النابعة من أحشائها والحاملة لهمومها فماذا يمكن أن تقدمه الفلسفة للقرن القادم، قرن جميع الأخطار والطامات الكبرى كما تقول بعض الدراسات الداقة لناقوس الخطر؟ فإذا كان القرن 20 بحسب هذه الدراسات قرناً نذيراً، فهل سيكون القرن 21 بشيراً؟ نعتقد أن الفلسفة لن تكون في مستوى المسؤوليات الملقاة على عاتقها إلا إذا تجاوزت الأزمة المزدوجة التي تمر بها.

-أزمة بيئية مجتمعية متسمة بالتوتر والقلق والخوف من كل شيء كالخوف من نهاية العالم المحتومة، والمقدرة "علمياً" كما مر منذ قليل، الخوف من نهاية التاريخ بعد أن دار العقل دورته الكاملة على نفسه وبلغ المطلق أو كاد، بالإضافة إلى هاجس الخوف من نهاية الأيديولوجيات المجندة والمخدرة لملايين البشر وراء أهداف لا تعدو سراباً ووهماً في حقيقة أمرها.

فهل يمكن اغتيال العقل (برهان غليون) وانهزامه (فinkelkraut) أن يعد بشيء سوى بنهاية كل شيء؟ والوجه الثاني لأزمة الفلسفة المعاصرة تعكسه بنية الفلسفة ذاتها من خلال (نوعية المسالك المنتهجة، وطبيعة القضايا المطروحة وحقيقة الغايات المرسومة. إنها وضعية حلها المفكر التشيكي المعاصر جان باطوشكة J. Patocka، بعناية فائقة في كتابه إلهام "افلاطون وأروبا" ولخصها ضمن أحد فصول الكتاب المذكور بعنوان: هل نهاية الفلسفة محتملة؟ وفيه ظل باطوشكة J. Patocka) يعاتب الذين يرمون بالفلسفة من أعلى نافذة العمارة ثم يقولون لها إياك أن تسقطي. الواقع أن حال الفلسفة سيء للغاية: إنها فقدت كل شيء.

فلم تعد لها أفكار جديدة توقف بها الناس من استرخائهم اليومي للرياش المريح والقاتل للنكاء، وليس لها قضايا جديدة تملأ بها مناقشات الناس الخاصة والعمومية.

فهي لم تعد تجترح منهجيات جديدة تهز بها مناهج العلوم المستقرة والأمنة، وهي تلك المنهجيات التي باتت تروّض النكاء أكثر مما تنفقه وتنميه كما يقول توماس كوهن T.Kuhn.

وإذا كانت الفلسفة بالإضافة إلى ما سبق تشك من نفسها وتشكك الناس في حقيقة أمرها أفلا يكون ذلك انتحارا شجاعا لها بعد أن ضاقت بها السبل؟

فهل يعني كل هذا أن أجل الفلسفة قد حان ليتوج النهايات المأساوية المذكورة للميتافيزيقيا والتاريخ والعالم؟ ولكن من سيرثي الإنسان إذا تحققت تلك النهايات؟ نعتقد أن وضعية الإنسانية المعاصرة، وإن أكثرنا من الإشارات اليائسة حولها، يلخصها العلامة الألماني بيتر آلتسلاندر Peter. Alteslander في كتابه الجاد بعنوان "آخر أيام الحاضر". وقد ذكر فيه قصة ثلاث ضفادع سقطت في وعاء من حليب؛ فقالت الساقطة الأولى لن أفلت من هذا الوعاء مهما فعلت، ولم تتحرك، فماتت غرقا، وقالت الثانية، ألا خوف علي ولا أحزن، إذ لا شيء خطير في الأمر،

فماقت غرقانة، أما الثالثة فإنها أخذت تتحرك بهدوء ونظام يمينا وشمالا حتى إذا أحست بشيء يابس بين قوائمها لما تحول الحليب زبدة، جمعت الضفدعة قواها فقفزت وأنقذت نفسها من الهلاك المحتوم.

إن مثل هذه الدعوة الرزينة إلى مواجهة الكوارث مهما كانت بكل هدوء وتبصر من شأنها أن تلقن الإنسانية الحاترة في أمرها درسا مفيدا يجنبها الغرق التشاوم أو التناول المفرطين.

فهل من حل في الأفق إذن؟

نعتقد بأن الحلول موجودة فعلا ولكنها تظل مرتبطة عضويا بالجواب المنتظر عن السؤال الميتافيزيقي المركزي، أشرنا إليه منذ بداية البحث وهو ما الإنسان؟ وماذا تريد الإنسانية، وأي إنسان تريده؟

هل تريد إنسانا لا تصدر سلوكاته إلا عن المنعكسات الشرطية واللاشرطية "كلب" بافلوف Pavlov وهل تريد أن تشكله وفق نمط سلوكيات "قار" ثورندايك؟

ثم هل تريد الإنسانية من جهة أخرى أن تقهر الجوانب الحيوانية الطبيعية الملحة في الإنسان وتحوله إلى إنسان الشبح يعيش بلا رغبات وذنوب أو أخطاء؟ كأن نجعل أياديه بيضاء لامعة ولكنه في حقيقة الأمر لا تكون له أيدي إطلاقا كما يقول كانط Kant.

إن الجمع بين الجوانب المادية الملحة وبين المستويات النفسية والروحية الضرورية كفيل بإقامة إنسان متزن منسجم ومتكامل في جسمه وروحه.

فإذا اقترب الإنسان من ذاتيته الحيوانية وتصلح معها لما يشبع حاجياته الطبيعية، فإنه يتطلع في ثقة نحو المثل العليا لحد التشبه بالله كما يقول الكندي إسحاق أبو يعقوب، وهو يسعى لتحقيق الكمال المشروع. ولا يتحقق ذلك في نظرنا إلا بوضع منظومة تربوية تجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية -

الإنسانية، وتشكل فيها الفلسفة هذا الجسر المفتوح للفكر، تمر من خلاله الأفكار بين حقلي المعرفة حرة طليقة بلا شرطة أو "جمارك للفكر" فهل يمكن إقامة سوق حرة للأفكار؟

كما نعتقد بأنه لم يعد يكفي أن نكون أناسا يعرفون الشيء الكثير عن ميكانيكا الطبيعة والكون، ولكنهم يجهلون كل شيء عن "ميكانيكا" المجتمع والتاريخ.

إن تثبيت أنظار الناس في الفضاء بعد تحويلها عن المشاكل اليومية المعقدة قد يصيبهم ما أصاب طاليس الساقط في البئر. كما أن توجيه إهتمام الناس صوب تكديس الأشياء والتباهي بها يحولهم إلى قطع لا يجري إلا وراء بطنه، نعتقد بأن دور الفلسفة إنما يكمن أساسا في لفت انتباه الناس إلى المشكلات المهمة وصرفهم عن التافه منها، تعلمهم كيف يواجهونها بصبر وثبات. بيد أن الفلسفة المسحوبة وراء قضبان مباني الأكاديميات والجامعات أو بين ثنايا سياج المذاهب الفلسفية المنظرة، قد تحولها عن وظيفتها في نقد وتربية وترقية فكر ونوق الناس لتتحول إلى أيديولوجية رسمية للدول، ناهيك أن ما يسمى بالفلسفة الجامعية أو فلسفة لأساتذة لم تكن دائما بريئة من الانتماءات الحزينة للسياسات والأيديولوجيات، السيارة في المجتمع، ويكون ذلك بصفة صريحة معلنة أو بطريقة ضمنية خفية.

فعسى الفلسفة ترجع إلى حيث كانت شريفة مع سقراط جواله بين الأماكن العمومية تتصنعت هموم الإنسان وتشاركه حيرته وخوفه وتحاول أن تجيب عن تساؤلاته باللغة التي يفهمها. ألم يكن عملها دوما مقتصرًا على توضيح رؤى وأفكار الناس حول العدالة والفضيلة، والشجاعة والحكمة والمعرفة والجمال، وهي تلك الأفكار التي يعيش الإنسان بها ومن خلالها حياته اليومية في المجتمع وفي التاريخ.

وعليه فإن إهتمام الفلسفة بالإنسان هو في الواقع إهتمام بالمجتمع أي بالسياسة، ومعنى هذا أن الفلسفة لم تستقل أبدا وفي يوم من الأيام عن السياسية، على أساس أن الفلسفة المنظمة لمعارف الإنسان تعمل على تحطيم الحواجز

المعرفية لمنصوبة لتحديد المعارف الإنسانية المتوارثة بالتربية، بينما السياسة من حيث هي تنظم المجتمع تعمل من جهتها على تكسير أغلال النظم القائمة، واستبدالها بنظام أفضل وأعدل.

هكذا كانت الفلسفة والسياسة تعملان على توفير الجو الملائم لحياة الإنسان والمجتمع. فأفكار الإنسان لا تقف على أرض مستقرة بفعل النقد والمناقشة والحوار، وفي ذلك تنشيط للفكر وتنبيه له واستزادة للمعارف، كما أن نظم المجتمع لا تستقر إذا لم تقم على أسس الحرية والعدالة والكرامة.

ويعتبر كل ذلك تأكيدا وتكريسا لمبدأ استقلالية ورشادية الإنسان والمجتمع وقدرتهما على التحرر من شتى أنواع الوصايات المفروضة عليهما في ميدان الأفكار والقيم والنظم والممارسة الإنسانية والمجتمعية.

ألم تكن تلك الممارسة شعار لفلسفة الأنوار لما صدعوا في وجه الإنسان قائلين له: كن رجلا أيها الإنسان، فكر في نفسك وفي المجتمع والطبيعة والتاريخ بنفسك وأصرخ باستقلاليتك.

ولكن الأستاذ مونرو Monnerot أنهى دراسة في سوسيولوجيا السياسية بتسؤل وملاحظة يمكن أن تتسلف كل ما قلناه إذ تسامل هل بلغ الإنسان والمجتمع من النضج الفكري والسياسي ما يجعلهما يستغنيان عن قيادة وتوجيه الآخرين له؟ هل بلغ مستوى مستتيرا حتى يمارس الديمقراطية ويكون جديرا بها؟ وهل يمكن أن نجعل من الممارسة الفلسفية حقا أساسيا من حقوق الإنسان المشروعة، وإن لم ينص عليه تصريح إعلان حقوق الإنسان للأمم المتحدة فهل يمكن تدارك ذلك؟ والتعويض عليه صراحة؟

الخلاصة:

وفي الختام ادعوكم إلى التمعن معي في خلاصة النتائج الميتافيزيقية التي اهتمت إليها العلامة الإنجليزي ستيفان هوكنج S. Hawking في كتابه إلهام "الوجيز في تاريخ الزمان".

وملخص منطوق الفكرة هو أن الإنسانية لو نتمكن من اكتشاف نظرية شاملة وكاملة، وتكون من السهولة والوضوح أن تغدو في يوم من الأيام مفهومه في خطوطها العامة على الأهل، لدى الناس كافة وليس عند الفئة الخاصة من العلماء فقط، لأمكن لنا جميعا فلاسفة وعلماء وعوام الناس من المشاركة بل والمساهمة في مناقشة مسألة معرفة لمذاثية الكون؟ ولماذا وجد؟ وإذا اهتمينا إلى وضع الجواب عن هذا السؤال سيكون الانتصار النهائي للعقل الإنساني، وعندئذ فقط نعرف المطلق.

فهل مستحق الأمنية – الحلم؟

وهل بإمكان الفلاسفة إنجاز ذلك؟ وهل تستطيع العلوم الاجتماعية أن تتجنب هذه الشعور اللصيقة بها لتتحول إلى علوم تتناول موضوعاتها بقدر إمكانياتها المنهجية والمعرفية المتسمة بالنسبية والاحتمالية والتقريبية مع تقريبها الحميم بالفلسفة والميتافيزيقا وفي ذلك تجديد لتساولاتها وتمديد لأفقها وآماله، وهلا نجحت الإنسانية في تكوين ثقافة تغدو ثلاثية الأبعاد: تجمع بين العلم و التطبيقات التقنية المستخرجة منه، وبين العلوم الاجتماعية، الإنسانية بمختلف فروعها وبين الفلسفة باعتبارها الأم المحتضنة و المربية لها وهذا هو الموقف الذي انطلقنا منه و إليه رجعنا كنتيجة لزمت عنه، وذلك ماتمنيناه، فهلا تحقق ذلك يوما؟

Bibliographie choisie

- S. Andreski : *Les sciences sociales, sorcellerie des temps modernes ?* Trad. fse, Paris PUF 1975.
- R. Aron : *Etudes sociologiques*. Paris PUF 1967.
- JM. Berthelot : *L'intelligence du social*. Paris PUF 1990.
- JP. Bouilloud : *Sociologie et société, épistémologie de la réception*. Paris PUF 1997.
- P. Bourdieu : *Interventions*. Paris PUF 2010.
- R. Bouveresse : *La philosophie et les sciences de l'Homme*. Ellipse 1998.
- P. Claval : *Les mythes fondateurs des sciences sociales*. Paris PUF 1975.
- E. Durkheim : *Sociologie et philosophie*. Paris PUF 2010.
- J. Freund : *Les théories des sciences humaines*. Paris PUF 1973.
- H.G. Gadamer : *Vérités et méthodes*. Trad fse, PUF 1995
- L.Goldmann : *Philosophie et sciences sociales* Paris PUF 1980.
- S. Latouche : *Le procès des sciences sociales*. Paris PUF 1985.
- P.Lazarsfield : *La philosophie des sciences sociales*. Trad fse , GAL 1970.
- Holler s/d : *Panorama des sciences humaines*. GAL 1973.
- J. Piaget : *Sagesse et illusion de la philosophie*. Paris GAL 1960.
- Epistémologie des sciences de l'Homme*. Paris GAL 1970.
- Max Weber : *Le savant et le politique*. Trad fse, Paris PLON 1975.
- P. Wink : *L'idée d'une science sociale*. Trad fse, Paris GAL 2009.